الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

مخبر الدراسات الأدبية و الإنسانية

الندوة العلمية: صورة القدس في الخطاب الأدبي العربي قديما و حديثا

استمارة المشاركة

الطالبة: أمينة بوتناف

جامعة الانتماء :جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة –

الدرجة العلمية: طالبة دكتوراه

التخصص : أدب عربي قديم

الأستاذة المشرفة: د/ بوقردون إيمان

مخبر الانتماء: مخبر الدراسات الأدبية والإنسانية

البريد الإلكتروني : aouana_18@hotmail.fr

رقم الهاتف: 23 .09. 36 .0659 .

محور المداخلة: القدس بين الأدب و التاريخ

عنوان المداخلة : **صورة القدس في أدب السير، الفتح القسي في الفتح القدسي للأصفهاني أنموذجا**

الملخص:

حظيت القدس بمكانة استثنائية في الأدب العربي بجميع فروعه ، فقد احتفى بها الشعراء وتفنن الرحّالة في وصف معالمها ، كما لم تخل كتب السير من ذكرها وتصويرها كمدينة مقدّسة تعكس قيم الديانة والتاريخ والروحانية ، وتتنوّع صورة القدس في أدب السّيرة بين الوصف الجمالي لمعالمها والتأمّل في الأحداث التاريخية التي جرت فيها.

وتركّز هذه الورقة البحثية على تحليل كيفيّة تصوير القدس وأهمّيتها في أدب السّير الإسلامي من خلال كتاب (**الفتح القسي في الفتح القدسي**) **لعماد الدين الأصفهاني** الذي قدّم رؤية معمّقة للقدس كرمز ديني وتاريخي للمسلمين ومكان مقدّس يجسّد النصر والفتح للمسلمين، وذلك من خلال سيرة فاتحها صلاح الدين الأيوبي.

الكلمات المفتاحية: صورة، القدس، أدب السير، الفتح القسي في الفتح القدسي.

Abstract :

Al-Quds enjoyed an exceptional place in all its branches of Arabic literature. Poets celebrated it and travelers excelled in describing its landmarks. Biographical books also mentioned and depicted it as a holy city that reflects the values of religion, history, and spirituality. The image of Al-Quds in biographical literature varies between aesthetic description. Its landmarks, and contemplation of the historical events that took place there.

This research paper focuses on analyzing how Al-Quds is depicted and its importance in Islamic biographical literature through the book (Al-Fath Al-Qasi fi Al-Fath Al-Qudsi) by Imad Al-Din Al-Isfahani, which presented an in-depth vision of Jerusalem as a religious and historical symbol for Muslims and a holy place that embodies victory and conquest for Muslims through Biography of its conqueror, Saladin Al-Ayyubi

Keywords: Image, Al-Quds , biographical literature, Al-Fath Al-Qasi in Al-Fath Al-Qudsi

مقدّمة:

حظيت القدس بمكانة خاصة في الأدب العربي بجميع فروعه، حيث احتفى بها الشعراء وتفنّن الرحّالة في وصف معالمها السّاحرة، ولم يغفل كتّاب السّير عن ذكرها وتصويرها كمدينة مقدّسة تعبر عن قيم الديانة والتاريخ والرّوحانية.

وتتنوّع صورة القدس في أدب السير بين الوصف الجمالي لمعالمها الفريدة، وبين التأمّل في الأحداث التاريخية التي جرت في أرجائها المقدّسة .

وتركّز هذه الورقة البحثيّة على تحليل كيفيّة تصوير القدس وأهمّيتها في أدب السّير الإسلامي من خلال كتاب **"الفتح القسي في الفتح القدسي"** لعماد الدين الأصفهاني ، والذي يعدّ من المصنّفات المهمّة والقيّمة التي نسخت للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، والتي تناولت الأحداث التاريخية للفتح المبين والمبارك للقدس الشريف .

وقد قدّم الكاتب رؤية معمّقة للقدس كرمز ديني وتاريخي للمسلمين، ومكان مقدّس يجسّد النصر والفتح لهم، وذلك من خلال سيرة فاتحها صلاح الدين الأيوبي، وكيف أن الفتح الإسلامي للقدس لم يكن مجرد حدث تاريخي، بل كان تجربة روحانية عميقة تعبّر عن إيمان المسلمين وتصميمهم على استعادة هذه المدينة المقدسة.

ومن خلال كتاب **"الفتح القسي في الفتح القدسي"** قدّم الأصفهاني رؤية مفصّلة لصورة القدس في أدب السير، مؤكداً على أهميتها الدينية والتاريخية والثقافية في نفوس المسلمين، وكيف أن هذه الصورة تعكس مدى التضحية والإيمان لدى الفاتحين بالقدس وقيمها الروحانية.

فكيف تبدو هذه الصورة التي رسمها العماد الأصفهاني للقدس قبل فتحها وبعد الفتح؟ وفيم تكمن رمزية هذا المكان المقدّس ؟ وما هي الصّورة التي رسمها الكاتب للفاتح صلاح الدين الأيوبي؟ و بم امتاز كتابه **"الفتح القسي في الفتح القدسي للأصفهاني "** من الناحية الفنية؟

و للإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدنا الخطة التالية:

مقدمة

1- مفهوم الصورة.

2- قراءة في كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الأصفهاني.

3- صورة القدس في كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي.

4- الدراسة الفنية للكتاب.

خاتمة

أولا : الجهاز المفاهيمي للبحث

1- مفهوم الصورة:

1-1- الصورة لغة :

يرى **ابن فارس** أن معنى الصّورة هي "صورة كل مخلوق والجمع صور وهي هيئة خلقته والله تعالى البارئ المصوّر"، وقال صاحب **الصحّاح** في معنى الصّورة: "وتصوّرت الشّيء: توهّمت صورته فتصوّر لي، والتّصاوير: التّماثيل". وتتحقق الصّورة بالتهيئة والوصف، وفي هذا المعنى قال **ابن منظور**: (صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته). وجاء في **القاموس المحيط**: "الصورة: الشكل والجمع صُوَر وصِور وصُوْرٌ. وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصّفة." [1]

بناءً على هذه التعريفات اللغوية، يُمكن أن نقول إنّ مفهوم الصورة يتسع ليشمل مجموعة من المعاني التي تتراوح بين الهيئة البصرية للشيء (شكل أو مظهر) وبين التصور الذهني أو الفكرة التي يمكن أن يتخيلها الإنسان عن هذا الشيء. كما تتنوع دلالاتها لتشمل الصفة أو النوعية، مما يجعلها مفهومًا متعدد الأبعاد.

1-2- الصورة اصطلاحا:

1-2-1- في النقد العربي القديم:

أوّل من لفت النظر إلى الصّورة الشعرية وطرح فكرتها على بساط البحث وفجّر العناية بها في تاريخ النقد العربي هو **الجاحظ (ت255ه)** عندما قال: " فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير "[2] ويقصد الجاحظ هنا صياغة العبارة وتأليفها بطريقة خاصة من شأنها تحقيق الغاية الكبرى وهي البيان. إضافة إلى الجاحظ نجد أن قضية الصورة استحوذت على اهتمام النقاد والبلاغيين العرب وأصبحت كثيرة الورود في مؤلفا تهم وقد أكد **عبد القاهر الجرجاني (ت471 ه)** ذلك عندما "برّر استعماله لها من أجل الدلالة على طريقة التعبير عن الفكرة الذهنية بواسطة الصور المرئية " [3]

و على العموم فالصورة الشعرية حسب القدامى هي إحدى خصائص الشعر النوعية التي تميزه عن بقية الفنون القولية ، ولم يحصروا دراستهم لها في الأنماط البيانية من تشبيه و استعارة وكناية و لكنهم تعدّوها إلى ألوان البديع المختلفة من سجع و طباق و تورية...و هي تعني عندهم الشكل.

1-2-2- في النقد العربي الحديث:

يرى **أحمد حسن الزّيات** أنّ" الصورة الشعرية تتمثل في إبراز الفن العقلي أو الحسي في صورة محسوسة والصورة الشعرية هي خلق المعاني والأفكار الواردة والواقع الخارجي من خلال النفس خلقا جديدا"[4]

ويظهر من خلال هذا التعريف تأثر الزيات بالتراث فهو يبرز المعنى في الصورة الشعرية المحسوسة لكنّه يشترط أن يتم ذلك من خلال ذات المبدع ووجهة نظر خاصة به.

أما **عبد الملك مرتاض** فيرى بأن"الصورة الفنية تفهم بالإدراك لا بالعين المجردة لأن الصورة قائمة على الوهم والخيال في طريق مادي". [5]

---

[1] ينظر معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، 320/3. لسان العرب: ابن منظور، 473/4. الصحاح: الجوهري، 717/2. القاموس المحيط ، الفيروزأبادي 427.

[2] الجاحظ ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ج3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3 ،1969، ص131،132 .

[3] ينظر عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، قرأه و علّق عليه محمود شاكر، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر، دط، دت ، ص50

[4] أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب ، القاهرة، مصر، ط1، 1973، ص62 ،63

[5] ينظر عبد الملك مرتاض ، قضايا الشعر، دار القدس العربي للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1،2009، ص356.

ويتجاوز **محمد غنيمي هلال** مسألة الخيال إلى الخلق، حيث يرى أن "الصورة هي خلق أثر فني جديد ،وتكمن أهميتها في جمالها وقدرتها على الخلق والإبداع والإتيان بالجديد حتى تكوّن صورة بأتم معنى الكلمة وهذا يتطلب قدرة كبيرة من الكاتب مشحونة بالذكاء والحنكة والقوة." [1]

فالنظرة النقدية الحديثة للصورة الشعرية تتعدى المفهوم البلاغي القديم الذي فصل أو كاد يفصل الصورة عن ذات الشاعر، ويفرغها من محتواها الوجداني، وقيمتها الشعورية وربما كان هذا الفصل هو الفارق الجوهري بين مفهوم النقاد المحدثين للصورة الشعرية، ومفهوم النقاد الأقدمين لها. إنه على الرغم من كثرة التعريفات الحديثة لماهية الصورة الشعرية وتعددها، فإن هنالك نقطة أساسية تلتقي حولها هذه التعريفات جميعا، وهي أن الصورة الشعرية تمتاز بطابعها الحسي وهي شيء ضروري وحتمي بالنسبة للشاعر وعنصر جوهري.

- **في النقد الغربي:**

تمتدّ كلمة صورة Image بجذورها إلى الكلمة اليونانية القديمة (Icone أيقونة)، الّتي تشير إلى التشابه والمحاكاة والنسخ و إعادة الإنتاج. ولعل الفيلسوف اليوناني **أفلاطون(427ق.م-347ق.م)** أول من تطرّق إلى مفهوم الصورة غير أنه لم يتناول موضوع الصورة الأدبية بشكل منفرد وإنّما درسها في إطارها الفلسفي العام ،وذلك من ناحيتين: نظرية المحاكاة والإلهام . **أما أرسطو(384ق.م/322ق.م)** فكان أكثر دقة في تناوله للصورة الأدبية فهي تعني عنده المثال، وإذا كان التماثل دعامة من دعائم الصورة ، فإن التشابه بدوره يقوم على هذا التماثل والتشبيه ، وأرسطو لم يخلط بين التشبيه والاستعارة، بل كان بصدد تحديد الصورة الأدبية التي تشمل التشبيه والاستعارة كليهما يقول: "إن الصورة هي أيضا استعارة، إذ إنّها لا تختلف عنها إلا قليلا فعندما يقال(وثب كالأسد) تكون أمام صورة، ولكن عندما يقال (وثب الأسد) تكون أمام استعارة" [2]

وقد توسع مفهوم الصورة عند المحدثين الغرب إلى حدّ جعله يشمل كل الأدوات التعبيرية ومنهم **جاستون باشلار GastonBachelard** فهو لم ينظر للصورة الشعرية بوصفها مجازا، إذ إن المجاز إشاري، فهو يشير إلى شيء واحد فقط ، في حين أن : " القصيدة هي كتلة من الصور، فالصور في القصيدة متعددة المعاني، فهي كمثل سلسلة من المرايا موضوعة بزوايا مختلفة، ولكنها مرايا سحرية، إذ أنها لا تظهر لنا على نحو مباشر داخل القصيدة، وإنما تتخفى وراء مظهرها الحسي"[3]

في حين أن الصورة عند **غاتشيف Gatchev** هي "كل فن متكامل قائم على أساس العلاقة بين جانبيها الحسي والعقلي ، وهي تعكس نمط العلاقات بين الفرد والمجتمع في كل عصر " [4].

هذا الكم من التعريفات دليل على شمولية هذا المصطلح الذي يحتاج إلى دراسة معمقة لمعرفة طبيعته و درجة تأثيره .

1-3- تعريف أدب السيرة:

كلمة (سيرة) مأخوذة من المادة اللغوية **سير**، وفي **تاج العروس للزبيدي**" :السيرة بالكسر السنَّة، والسيرة الطريقة، يقال سار الوليّ في رعيته سيرة حسنة، والسيرة الهيئة "[5] . وفي **لسان العرب لابن منظور**:" السيرة السيرة الطريقة، يقال:"سار بهم سيرة حسنة ، والسيرة: الهيئة، وسيّر سيرة حدّث أحاديث الأوائل" [6] ، ويقال ويقال قرأت سيرة فلان : تاريخ حياته والجمع سيَر .

من خلال هذه التعريفات المعجمية نلحظ أن للكلمة معان واستعمالات متعددة وإن بدا الأصل واحدا.

---

[1] ينظر محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار النهضة للطباعة، القاهرة، مصر، دط، 1984، ص287

[2] الولي محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان،ط1، 1990، ص15.

[3] ينظر غادة الإمام ، الصورة الشعرية عند جاستون باشلار ، التنوير للطباعة، بيروت، لبنان، ط1، 2010 ،ص 173

[4] غورغي غاتشيف ، الوعي و الفنّ، تر: نوفلنيوف، عالم المعرفة، الكويت ، دط ، 1990م، ص15

[5] ، مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس،تح: جماعة من المختصين ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب الآداب بدولة الكويت، ج12، 2001، ص 116،115

[6] ابن منظور، لسان العرب، مادة سير، ص 451 .

أما **اصطلاحا** فيذهب النقاد إلى أنّها نوع من الأنواع الأدبية " تتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر تعريفا يطول أو يقصر ويتعمق أو يبدو على السطح، تبعا لحالة العصر الذي كتبت فيه الترجمة ، وتبعا لثقافة المترجم ومدى قدرته على رسم صورة كاملة وواضحة من مجموع المعارف والمعلومات التي تجمعت لديه عن المترجم له" [1]

من خلال هذا التعريف نلحظ وجود علاقة وطيدة بين السيرة والترجمة مع ما بينهما من أوجه اتفاق و اختلاف، وقد جرت عادة المؤرخين أن يسمّوا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها ، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سمّيت سيرة.

وقد مرّت السيرة في الأدب العربي القديم بمرحلتين : المرحلة التاريخية والمرحلة الأدبية، حيث ظهرت في الأدب العربي السيرة التاريخية والتي ركزت على الجانب التاريخي ومنها: **سيرة ابن إسحاق** وتحدث فيها عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، **كتاب الطبقات** لابن سعد وغيرها.

أما السيرة ذات الطابع الأدبي فظهرت مع القرن الخامس الهجري ومن أمثلتها (**الإمتاع والمؤانسة**) و(**أخلاق الوزيرين**) لأبي حيان التوحيدي.

وقد عرف الأدب العربي شكلين من السيرة: **السيرة الغيرية** أو ما يصطلح عليها **بالسيرة الموضوعية** "التي تتناول حياة إنسان آخر غير حياة كاتبها، برصد ظروف نشأته وتتبّع مراحل تطور حياته وتنقلاته في الزمان والمكان ، وغالبا ما يكون لشخص المترجم له وضع اعتباري متميز ومكانة في المجتمع والتاريخ أخذا للعبرة ورغبة في الاقتداء بشخصه ؛ لأهمية ما أنجزه في محطاته العمرية على مدار سنوات". [2]

إضافة إلى **السيرة الذاتية (Autobiographie)** التي يدوّن فيها الكاتب أخبار حياته ويسردها بقلمه مشكلا إيّاها في صورة من صور التأليف الأدبي الذي يقتضي رسم معالم الحياة في نسق تتحكم فيه صيرورة التسلسل الزمني التاريخي للحدث ، وقد تتداخل الأحداث وذلك بإجراء السارد تقنية التقديم و التأخير في الحدث.

نرى أن أدب السيرة قد اهتم في الغالب بحياة شخصيات العالم وتاريخهم ، وهو أدب قديم تعدّدت موضوعاته ومضامينه فتناول جوانب اجتماعية و تاريخية وسياسية ، بل شمل جميع مناحي الحياة، حيث نجد فيه مادة أدبية و تاريخية ناهيك عن النصوص الدينية والأشعار المبثوثة ، وهذا النوع يستهوي الناس لأنّهم مبالون لمعرفة حياة الآخرين.

ثانيا: قراءة لكتاب الفتح القسي في الفتح القدسي:

2-1- **ترجمة موجزة للمؤلف**: القاضي الإمام ، العلامة المفتي ، المنشئ البليغ ، الوزير عماد الدين ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله الأصبهاني الكاتب ، ويعرف بابن أخي العزيز [3]. ولد في أصفهان عام 1125م، انتقل منها إلى بغداد وتلقى تعليمه في المدرسة النظامية وتدرج في الوظائف إلى أن أصبح نائب الوزير ابن هبيرة.

ومات الوزير ، فضعف أمره ، لهذا رحل إلى دمشق واستخدم عند السلطان نورالدين زنكي في ديوان الإنشاء ، ثم لحق بصلاح الدين بعد موت نورالدين، فكان معه في مكانة (وكيل وزارة). ولما توفي صلاح الدين استوطن العماد دمشق ولزم مدرسته المعروفة بالعمادية وتوفي بها. [4]

---

[1] محمد عبد الغني حسن، التراجم و السير، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 3، 1980، ص28.

[2] ينظر محمد بوعزة، تحليل النص السردي (تقنيات و مفاهيم)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان،ط1 ، 2010، ، ص32.

[3] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء ،ج 21، مؤسسة الرسالة، 1996، ص 345.

[4] خير الدين الزركلي، الأعلام ،ج 7 ، دار العلم للملايين، ط15، 2002 ، ص26،27

عُرف بالشعر والكتابة، وكان فيهما من أصحاب السجع والجناس والطباق والتلاعب اللفظي، غير أنها في شعره أقل، وكان له ديوان شعر كبير، وأعظم شعره ما صوّر فيه الحروب الصليبية. أرّخ لنفسه في **" البرق الشامي "**، ولشعراء القرن الثاني عشر في **" خريدة القصر وجريدة العصر "**، ولأحداث عصره في عدة كتب أهمها: **" نصرة الفترة وعصرة القطرة "** في تاريخ السلاجقة، و**" عتبى الزمان في عقبى الحدثان "**، و**"نحلة الرحلة وحيلة العطلة "** و**" الفتح القسي في الفتح القدسي "**، وهو تاريخ مسجوع موشى بالمحسنات اللفظية، لفتح بيت المقدس وغيرها .

2-2- **مضمون الكتاب**: كتاب **(الفتح القسي في الفتح القدسي)** للأصفهاني تسجيل تاريخي منظّم للنشاط الحربي الذي قام به صلاح الدين الأيوبي بين سنتي 583ه و589ه ، وهي فترة الجهاد الأكبر الذي قام به لتطهير فلسطين وبلاد الشام عامة من الاحتلال الصليبي ، وقد استعاد السلطان صلاح الدين بهذه الحروب كثيرا من معاقل الصليبيين، وفي مقدمتها بيت المقدس. فهذا الكتاب هو "تاريخ سبع سنوات فقط من حياة السلطان صلاح الدين الأيوبي وهو العام الذي فتح فيه صلاح الدين بيت المقدس".[1]

ويحتوي أيضًا على معلومات تاريخية عن الأماكن المقدسة مثل المسجد الأقصى والمعابد اليهودية ومسجد قبة الصخرة وغيرها، وعلى بعض المعلومات الجغرافية، مثل المسافة بين المدن أو مواقع المعارك التاريخية المهمة.

2-3- **التسمية**: القاضي الفاضل هو الذي أطلق على كتاب العماد هذه التسمية فسمّاه "الفتح القسي نسبة إلى **قس بن ساعدة الإيادي**، خطيب العرب في الجاهلية ، وكان قسّ معروفا إذ ذاك بالسجع ، وكان عماد الدين الأصفهاني قد جعل كتابه هذا سجعا من أوّله إلى آخره ، فاستحسن القاضي الفاضل هذه التسمية، وقصده منها أن الله فتح على العماد في سجعه هذا كما فتح على قسّ بن ساعدة من قبله في السجع والبلاغة أيضا. والفتح القدسي نسبة إلى بيت المقدس".[2]

2-4- **أسلوب الكتاب**: يعتمد الكتاب على الإكثار من المحسنات البديعية ، بدرجة مرهقة تجعل استخلاص الحقائق التاريخية منه أمرا صعبا ومهمة شاقة ، ولكن صدق هذه المعلومات يستحقّ ما يصرف في سبيل استخلاصها من العناء ، فالعماد يتحدث عما شاهده أو سمعه بنفسه أو عما وقف عليه في أثناء عمله في ديوان الإنشاء .

ويمثل كتاب **الفتح القسي** كل خصائص الأسلوب السائد وقتئذ في كتابة الرسائل ، بما تضمنه من نماذج البيان والبلاغة ، ومن الوقائع والأحداث ،وبما انطوى عليه من استهلالات ومقدمات حافلة بالسجع في رواية الأحداث ، وبما اتصفت به عباراته من الحلية والزخرف التي اعتبرها بعض الباحثين في الغرب مجردة من المضمون، ولعل ذلك يرجع إلى عدم فهمهم لأسلوب الكتابة في هذا العصر، وعدم إحاطتهم بأحواله الثقافية بوجه عام، أضف إلى ذلك عدم إدراكهم للبلاغة العربية بأهدافها ومراميها. وكل ذلك يعلل ما أصاب هذا الكتاب المهمّ من الإهمال النّسبي على الرغم من أهميته كوثيقة أدبية ومصدر تاريخي.

2-5- **منهج الكتاب**: سار الأصفهاني على منهج الكتابة التاريخية الصحيحة، يقول:(**وما شهدت إلا بما شاهدته وشهدته، وما عُنيت إلا بإيراد ما عانيته، ولا بنيت القاعدة إلا على أس ما تبيّنته فبينته، وما توخيت إلا الصدق، وما انتهيت إلا الحق، ولا ذكرت كلمة تسقط ولا اعتمدت إلا ما يرضي الله ولا يسخط)** [3]

وما ساعد العماد الكاتب على أن يكون عالماً ببواطن الأمور، هو قربه من دوائر الحكم والسلطة، لذلك جاء هذا الكتاب حاوياً قدراً كبيراً من المعلومات التي لا يعرفها غيره، ومن هنا تأتي أهمية كتاب الفتح القسي كوثيقة هامة لكاتب عاصر وشارك في أحداث تلك الفترة الهامة من تاريخ العرب والمسلمين.

---

[1] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تح: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة، 1965 ، ص 5

[2] المرجع نفسه ، ص6،5.

[3] المرجع نفسه ، ص 41

2-6- **تحقيق الكتاب:** طبع الكتاب أول مرة سنة 1888م بهولندا، ليدن بمطبعة بريل وحققه **كارلو لاندبرج** ، وأطلق عليه عنوان **(فتح صلاح الدين لسوريا و فلسطين)** وبعد ذلك صدر الكتاب عن سلسلة الذخائر بتحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح وقدم له د. حامد زيان غانم.

2-7- **ترجمة موجزة لصلاح الدين الأيوبي:** السلطان الكبير الملك الناصر صلاح الدين،" أبو المظفر يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدُويني ثم التكريتي المولد"[1] . ولد سنة (532ه/1138م) قائد مسلم ، أسس الدولة الأيوبية التي وحّدت مصر والشام والحجاز وتهامة واليمن في ظل الراية العباسية، بعد أن قضى على الدولة الفاطمية التي استمرت 262 سنة.

"قاد صلاح الدين عدّة حملات ومعارك ضد الفرنجة وغيرهم من الصليبيين الأوروبيين في سبيل استعادة الأراضي المقدسة التي كان الصليبيون قد استولوا عليها في أواخر القرن الحادي عشر، وقد تمكّن في نهاية المطاف من استعادة معظم أراضي فلسطين ولبنان بما فيها مدينة القدس، بعد أن هزم جيش بيت المقدس هزيمة منكرة في معركة حطين"[2].

لم يتمكّن صلاح الدين من الاستفادة من رحيل الصليبيين لأنه توفي بعد فترة وجيزة في دمشق في 4 مارس (589ه /1193م)، وكان عمره 55 أو 56 عامًا فقط، وعلى الأرجح مات بسبب الإنهاك الجسدي الكبير الذي أصابه على مدى عقود من جهاده، وسرعان ما تفكك التحالف الإسلامي الهش والمتقلب في كثير من الأحيان بمجرد وفاة زعيمهم العظيم، وسيطر ثلاثة من أبناء صلاح الدين على (مصر، دمشق، وحلب) على التوالي، في حين تشاجر أبناء البيت الأيوبي والأمراء الآخرون على البقية.

2-8- فتح صلاح الدين الأيوبي للقدس:

كان فتح صلاح الدين لبيت المقدس نقطة فارقة في تاريخ المنطقة ، ولم يكن صلاح الدين أول من سار على درب تحرير بيت المقدس، إذ قد كان لأستاذه السلطان نور الدين محمود زنكي ووالده الفضل في رسم خطة استراتيجية للفتح . وقد عمل صلاح الدين بجانب إعادة ربط المسلمين بقضية بيت المقدس على توحيد المسلمين حول هذه القضية تحت راية واحدة ابتداء بمصر واليمن ومن ثم بلاد الشام والجزيرة الفراتية، قبل الانتقال لقتال الفرنجة . وقد كان النصر في حطين بداية نهاية الوجود الصليبي وتمهيد الطريق لفتح بيت المقدس، لكن بعد معركة حطين في 4 تموز 1187 م لم يتحرك صلاح الدين بجيشه مباشرة لبيت المقدس بل سار بالاتجاه المعاكس باتجاه المدن الساحلية التي كان الصليبيون يحتلونها، ففتح عكا وبيروت ومن ثم سار باتجاه عسقلان وبعد فتحها توجه لفتح مدينة بيت المقدس ، لكن قبل ذلك أرسل الرسائل لأهلها للتسليم صلحا، بل وعرض عليهم البقاء في المدينة فترة من الزمن، فرفضوا عروضه كلها حتى وصل إليها بجنده وحاصرها. وقد ذكر **الأنصاري** بأن المنجمين كانوا قد أخبروا صلاح الدين بفقدان عينه إذا ما أقدم على فتح بيت المقدس فقال" **رضيت أن أفتحه وأعمى"**[3]

رفض الصليبيون في البداية تسليم القدس وأبدوا تمسكهم بالمدينة و أنهم لن يتخلوا عن كنيسة القيامة حيث أن(**فيها صلب المسيح، وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت... قالوا :دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت، وعنها ندافع، وعليها نقارع** [4] " كما ذكر الأصفهاني استماتة المسلمين بفتح بيت المقدس والمسجد الأقصى، وذكر قسم السلطان صلاح الدين أنه لن يعود حتى يفتحها قائلا: **"وأقسم لا يبرح حتى يبرّ قسمه، ويرفع بأعلاه علمه، وتخطو إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، ويصغي إلى صرخة الصخرة "** [5]

---

[1] شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء ،ص 279

[2] شفيق جحا، منير البعلبكي ،بهيج عثمان، المصور في التاريخ، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص36

[3] محمد بن إبراهيم الأنصاري الخزرجي، تاريخ دولة الأكراد و الأتراك، آزاد للنشر، إسطنبول، 2015، ص18

[4] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 71

[5] المرجع نفسه ، ص 67-71

فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وما وصلوا إليه وأيقنوا أنهم قد أشرفوا على الهلاك، اجتمع رؤساءهم يتشاورون، فاتفقوا على طلب الأمان من المسلمين وتسليم بيت المقدس إلى صلاح الدين، لكن صلاح الدين رفض ذلك. و في آخر جولة من مفاوضات التسليم استشار صلاح الدين أصحابه في الأمر كما يذكر عدد من المؤرخين ويسرد الواقعة العماد الأصفهاني بلغته البليغة قائلا:" **فعقد السلطان محضرا للمشورة، وأحضر كبراء عساكره المنصورة، وشاورهم في الأمر، وحاورهم في السر والجهر... واستقر بعد مراودات ومعاودات؛ ومفاوضات وتفويضات؛ وضراعات من القوم وشفاعات؛ على قطيعة تكمل بها الغبطة، وتحصل منها الحوطة)** [1] و مع أنّ القرار لم يكن سهلا، لكنهم أجمعوا على إجابة الصليبيين إلى الأمان على أن لا يخرجوا منها إلا بشروط الفتح عنوة، و فتح صلاح الدين بيت المقدس، في سبتمبر **1187م**، وتجنّب بهذا الفتح مذبحة جماعية للمسيحيين في المدينة، وتم فدية معظمهم أو جعلهم عبيدًا. أما النصارى الشرقيين والذين لم يكونوا من الفرنج، أو كما سماهم **ابن خلدون** نصارى القدس الأقدمون،" فقد أُعفي عدد كبير منهم من الفدية ودفعوا الجزية، وسمح لهم بالبقاء في المدينة المقدسة".[2]

3- صورة القدس في كتاب (الفتح القسي في الفتح القدسي):

3-1- صورة القدس المحتلة: يقول الأصفهاني في كتابه الفتح القسي: **"ولما تقدّس القدس من رجس الفرنج أهل الرجز؛ وخلع لباس الذل ولبس خلع العز"** [3]. من خلال هذه العبارة يرسم لنا الأصفهاني صورة الفساد العظيم الذي أحدثه الصليبيون بالقدس، فقد تطاولت أيديهم إلى المساجد والأماكن المقدّسة ناهيك عما تعرض له أهلها من قتل وحشي وإذلال ، فيصوّر صورة المسجد الأقصى الذي استخدم الصليبيون أبنيته بين كنيسة وسكن ومخازن وإسطبلات. وأما في بقية المدينة فقد حوّل الصليبيون عند احتلالهم المدينة كل أبنيتها إلى استخداماتهم، فحوّلوا إلى جانب المساجد العديد من المدارس إلى كنائس هذا بالإضافة إلى احتلالهم للبيوت والقلاع والقصور وغيرها.

وأما الجامع الأقصى فقد كان الداوية أو (فرسان الهيكل) قد بنوا غربيه أبنية ليسكنوها، وعملوا فيها أبنية لتخزين الأطعمة وغير ذلك، وقد بنوا في وجه المحراب جدارا، وتركوه مخزنا وقيل مستراحا (مرحاضا) عنادا للإسلام وبغيا، حيث جعلوا محراب المسجد الأقصى مشغولا بالخنازير والخبث ، يقول الأصفهاني: " **و كان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا، وقيل كانوا اتخذوه مستراحا عدوانا وبغيا، وكانوا قد بنوا من غربي القبلة دارا وسيعة، وكنيسة رفيعة"**[4]

أما الصخرة المشرّفة فتم تحويلها إلى كنيسة عرفت باسم معبد الرب و جعلوا على صخرتها المشرّفة مذبحا ، وأما عن داخل البناء فكما يذكر **العماد الأصفهاني** أنّ الفرنجة قد أحدثوا بها أبنية زينوها بالصور والتماثيل وكسوها صورا **"هي أشنع من التعرية وملأوها بتصانيف التصاوير ونبتوها في ترخيمها أشباه الخنازير**[5]**"** **الخنازير**[5]**"**

و يتفق المؤرخون على هول الدمار الذي لحق بالقدس و أهلها جراء هذا العدوان الصليبي ، يقول **ابن خلدون** في مقدّمته: **"استباح الفرنجة بيت المقدس ، و أقاموا في المدينة أسبوعا ينهبون و يدمّرون ، وأحصي القتلى بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والعبّاد والزهاد فكانوا سبعين ألفا أو يزيدون"**[6]

---

[1] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 71،72

[2] عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، تاريخ ابن خلدون ،ج 5، دار الفكر، بيروت، ص362

[3] عماد الدين الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 76

[4] المرجع نفسه، ص 76

[5] الفتح بن علي البنداري، سنا البرق الشامي، اختصار من كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني، تح: فتحية النبراوي، النبراوي، مكتبة الخانجي ، القاهرة، مصر، ص315

[6] ابن خلدون، المرجع نفسه ،ص184

و يقول المؤرخ الصليبي الذي حضر الحروب الصليبية **ريموناجيل**: **"سفك تانكرد وجودفري كمية لا تصدق من الدماء...فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين بلا رحمة، بينما اخترقت الآخرين الأسهم الموجهة من الأبراج، بينما عذب آخرون لوقت طويل وأحرقوا حتى الموت في اللهب المتأجج"**[1]

3-2- **صورة القدس بعد الفتح** : يقول الأصفهاني: **" وأعاد به القدس إلى قدسه، وأظهره وطهَّره من رجز الكفر ورجسه، وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس... وقد أقصى عن المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون الأقربون، والملائكة المقربون، وخرس الناقوس بزجل المسبّحين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين."**[2] من خلال هذا القول يرسم الأصفهاني أصداء النصر العظيم الذي حققه صلاح الدين، فيصور القدس قد تبدلت أحوالها، فعادت إلى قدسيتها ، وتطهّرت من الرجس، وعاد الإسلام إليها، بعد أن كان غريباً فيها، وتوافد الناس والملائكة إلى المسجد الأقصى، وحلَّت أصوات المسبّحين بدل أصوات النواقيس.

ويصور العماد فرحة الأماكن المقدسة التي اشتركت مع الناس في فرحة التطهير، فظهرت عليها معالم البهجة والسرور، واجتمع فيها شمل المسلمين، وخرج منها أهل الشرك ودخلها أهل التوحيد، ويذكر العماد أيضاً الأهمية الدينية لهذه المدينة، ويهنئ البيت الحرام بخلاص أخيه البيت المقدس، يقول العماد": **وقال المحراب لأهله مرحباً وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شملاً، ورُفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من برَّه أوفى نصيب، وتلت بألسنة عذبها (نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)، وغُسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين... فليُهنَّ البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر، وإسفار صبح الإسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر، وتطهير مواقف الأنبياء صلوات الله عليهم من أدناس الأرجاس، وتضرع أرج الرجاء في أرجائه بعد الياس"**[3]

ويصور العماد عظمة هذا الفتح، بأنه لا يحيط به وصف، فهو معجزة بحد ذاته، يعجز عن وصفه بشرٌ مهما أوتي من البلاغة والفصاحة، يقول العماد: **" ولو شرح ما لهذا الفتح من جلال العظمة، ودلالة المكرمة، لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا))"** [4]

و أوّل ما بدأ به صلاح الدين كان أمره بإعادة أبنية المسجد الأقصى إلى حالها القديم، وشمل الأمر كل من الجامع الأقصى وقبّة الصخرة وبقية أنحاء المسجد. فأما الجامع الأقصى فقد أمر صلاح الدين" **بإزالة ما أحدثوه من البنيان، وكشف الجدار الساتر للمحراب، وتنظيفه وما حوله من الأقذار والنجاسات، ونصب المنبر لإقامة الخطبة الإسلامية"**[5]

وقد ذكر **العماد الأصفهاني** أنه تعاون مع المسلمين على الأمر" **حتى ظهر موضع المنبر والمحراب واستظهروا بإزالة ما قدامه من الحجاب واجتمع الخلق في ذلك الأسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع**

---

[1] ريموناجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، نقله إلى العربية و علق عليه الدكتور حسين محمد عطية ، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط1، 1989، ص30

[2] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص 82

[3] المرجع نفسه ، ص147، 148

[4] المرجع نفسه، ص149،148.

[5] ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج2، دار الكتب و الوثائق القومية ، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957، ص 217

وتعاونوا حتى كشفوه ونظفوه ورشوه وفرشوه، وكان قد أمر باتخاذ منبر في تلك الأيام فنجروه وركبوه[1] ." وتم هدم ما بنوه بين سواري الجامع، وتم نصب منبر بجانب المحراب المطهر وتم" **بسط صحن الجامع بالبسط النفيسة بدل الحصر والبوارى، وتعليق القناديل وإقامة شعار الدين" [2]**

وبعد ذلك قام صلاح الدين بعمارة الجامع وأمر بترخيم محراب الأقصى وكتب عليها بالفصوص المذهّبة نقشا تذكاريا، ما زال ظاهرا إلى اليوم. أما الصخرة المشرّفة وقبّتها فقد تم تطهير الصخرة وإزالة ما أضافه الفرنجة من رسومات وصلبان ومذابح وقد صلى بها صلاح الدين في جمعة الفتح، بل ويذكر الأنصاري بأن صلاح الدين غسل الصخرة بيديه ، يقول**: " ودخل السُلطان الصخرة وغسلها بالما ورد وبلحيته وهو يبكي وَمَحى الصُور منها وكسر الصُلبان"[3]**

هذا بالإضافة إلى تطهيره لقبّة السلسة، وسط المسجد الأقصى بجانب قبة الصخرة، والتي كانت كنيسة أيضا، وكثيرا من قباب المسجد التي إما استخدمها الصليبيون أو هدموها فأعاد تجديدها كقبة المعراج، والقبة النحوية التي استحدثها الصليبيون. كما كان لأمراء الأفرنج ومقدميهم مقابر مجاورة للصخرة وعند باب الرحمة مقبرة وقباب أخرى فأزالها ومحا آثارها كما يذكر **العماد الأصفهاني** بأن المسلمين قاموا بإزالة آثارها تماما، حيث يذكر" **وقلعنا صفايحها المخرمة وأعمدتها المرخمة وسوينا بها الأرض. "[4]**

كما قام صلاح الدين بتحويل عدد من أبنية النصارى وكنائسهم إلى مستشفيات ومدارس، فقد حوّل كنيسة القديسة حنة للمدرسة الصلاحية أما أقدس كنائس النصارى، كنيسة القيامة (أو الأصح قُمامة بمعنى كنيسة السيد)[5] والتي يعتقد النصارى أن المسيح دُفن فيها بعد صلبه ومنها كانت قيامته بعد ثلاث أيام، فقد أمر صلاح صلاح الدين بإغلاق أبوابها بعد الفتح مباشرة إلى أن ينظر بحالها، ولم يهدم صلاح الدين كنيسة القيامة ولم يحوّل استخدامها وذلك للمصلحة العامة التي ارتآها السلطان بعد مشاورته لأهل العلم والعسكر وأعاد فتح الكنيسة بعد ثلاث أيام من الفتح، وسمح للنصارى بالعودة للصلاة فيها.

3-3- **<u>رمزية المكان</u>**: تتمحور رمزية القدس حسب الكتاب حول عدد من المواقع التاريخية والدينية الموجودة فيها أبرزها المسجد الأقصى أو بيت المقدس ، قبة الصّخرة، مقام النبي داوود، كنيسة القيامة ، حائط البراق... و سرّ القدسية التي اكتستها القدس هو:

- لأن بيت المقدس قد خصّه الله بأن يحتضن المسجد الأقصى الحبيب الذى ذكره الله في قرآنه الخالد، يقول **الأصفهاني: "وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الأقوى؛ والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى؛ وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار إبدال الأرض وملائكة السماء، ومنه المحشر والمنتشر، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر" [6]**
- لأن الأقصى ريحانة القدس هو البقعة المباركة التى انطلق منها حبيب الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى رحلة تاريخية مشهودة يوم أن أسرى الله به إلى السماء فكانت انطلاقة وتكريما غير مسبوق من الله لنبيه وحبيبه ، يقول الأصفهاني:" **وفيه ومض البارق ومضى البراق، وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق" [7]**

---

[1] البنداري ،سنا البرق الشامي، ص382،381

[2] ابن واصل ، المرجع نفسه، ص 217

[3] الأنصاري، تاريخ دولة الأكراد و الأتراك ،ص19

[4] البنداري، سنا االبرق الشامي، ص317

[5] زكريا محمد، أصل التسمية لكنيسة القيامة، حوليات القدس، العدد 13،2012، ص 60،58

[6] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 69

[7] المرجع نفسه، ن ص.

●لأنّ قبلة المسلمين الأولى كانت بالمسجد الأقصى وهو ما يؤكّد شرف وعِظَم المكانة عند الله تعالى، يقول **الأصفهاني: " وهو أوّل القبلتين، وثاني البيتين، وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشدّ إليها الرّحال، ويعقد الرّجاء بها الرّجال"**[1]

●لأنّ قدوتنا محمد صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء إماما فى بيت المقدس فازداد شرف المكان واستقر فى النفوس والأذهان أن هذه البقعة ليست كغيرها بعد أن حلّت عليها كرامة الحبيب قائد الأنبياء وإمام المرسلين المبعوث رحمة وهداية للناس أجمعين ، فنالت الأرض الشرف بوطأة قدم الأشرف محمد .يقول **الأصفهاني**: **" وصخرته الطولى، القبلة الأولى ، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية ، وعندها صلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبيين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليين "**[2]

●لأن فيه قبة الصخرة ، يقول الأصفهاني**: " وفيه الصخرة التي صينت جدة إبهاجها، ومنها منهاج المعراج، ولها القبة الشمّاء التي على رأسها كالتاج"** [3]

●ويقول: **"وفيه محراب مريم عليها السلام الذي قال الله فيه (كلما دخل عليها زكريا)، ولنهاره التعبد ولليله المحيا، وهو الذي أسسه داوود ووصى ببنائه سليمان... وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة الفرقان."**[4]

وينتهي العماد الأصفهاني إلى تعظيم المسجد الأقصى فيقول: **"فما أجلّه وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأجلاه، وأسماه وأسناه. وأيمن بركاته وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه وأبهج مزاينه، وقد أظهر الله طوله وطوله، بقوله (الذي باركنا حوله)".**[5]

3-4- **<u>رمزيّة الزمان: (فتح بيت المقدس):</u> يقول العماد الأصفهاني** : **"واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج، وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج، وزاد من الألسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج"**[6] من خلال هذه العبارة تظهر فرحة المسلمين بيوم الفتح الذي توافق مع ليلة الإسراء و المعراج ويرى المؤرخون أنه توافق رباني لفتح الفتوح. و ليس أدلّ على عظمة فتح القدس من وصف عماد الدين الكاتب الأصفهاني لتحرير القدس **"بالهجرة الثانية" يقول في ذلك: " و أنا أرّخت بهجرة ثانية ، وهي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس، و هذه الهجرة أبقى الهجرتين و هذه الكرّة بقوة الله أعظم الكرتين"**[7]، **الكرتين"**[7]، فهذا الوصف يحمل الكثير من الدلالة والرمزية، و لعلّ ظروف ما قبل التحرير هي التي استدعت استدعت هذا الوصف ، لأن ما سبقها كان ربما من أحلك أيام التاريخ العربي الإسلامي على الإطلاق ، حيث ساد التفكك وكثرت الصراعات المحلية والفتن والإقدام على عقد الاتفاقيات المنفردة مع الصليبيين.

ويصف **بهاء الدين بن شداد** صاحب **"النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"** والذي عينه صلاح الدين قاضياً للقدس يوم التحرير بقوله : "وكان تسلّمه القدس قدس الله روحه في يوم الجمعة السابع و العشرين من رجب و ليلة كانت المعراج..فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسّر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنيهم صلى الله عليه و سلم ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى، وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الحرف والطرق، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يَسَّرَ الله على يده من فتوح الساحل، وشاع قَصْدُه القدس قَصَدَهُ العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من

---

[1] المرجع نفسه ، ن ص.
[2] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص 69
[3] المرجع نفسه، ن ص
[4] المرجع نفسه، ن ص
[5] المرجع نفسه، ن ص
[6] المرجع نفسه ، ص 73
[7] المرجع نفسه ، ص 37

الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخُطِبَ فيه وصُلِّيَتْ فيه الجمعة يوم فتحه"[1]

3-5- صورة البطل: تجلت صورة البطل المسلم لدى **العماد الأصفهاني** من خلال كتابه (**الفتح القسي في الفتح القدسي**) من خلال شخصيّة صلاح الدين الأيوبي ، وكانت الشجاعة من أبرز هذه الصفات ، حيث رسم العماد صورة جميلة لقوة العزيمة التي عند صلاح الدين، التي قادته إلى النصر على أعدائه وإلحاق الهزيمة بجيشهم، ويصور العماد اندفاع البطل للجهاد وتصميمه عليه، وتفضيله الجهاد على ملذات الدنيا، فيقول:" **ثم رحل السلطان مقدماً، ولعزمه في الجهاد مصمِّماً، ولرأيه في بذل الوسع والاجتهاد متمِّماً، وسار في جيش مجر، لسيل الخيل مُجر، من سواد القتام في ليل، ومن بياض البيض في فجر، ومن حب الغزو في وصل، ومن سلو الحياة في هجر، وفي أجرى أجرٍ وأنحى نحرٍ** " [2]

ويُعدُّ الكرم من بين الصفات التي يتصف بها البطل، وهو كرم قائم على البذل في سبيل الله ورفعة الدين، ويُمثّل العماد لكرم صلاح الدين الأيوبي، وكثرة عطائه، فقد صوَّر العماد مجلس صلاح الدين في مدينة دمشق، واستقباله للأكابر والأفاضل من أهلها، وأفضاله التي غمرت جميع من في المجلس و في ذلك يقول العماد : " **وجلس يوماً آخر للأكابر والأماثل، والأكارم والأفاضل، فأضاء النادي، وفاضت الأيادي، وغدق الندى، وصدق الهدى، وكرَّ الكرم، وفرَّ العدم، وحفل الدر، ودرّ الحفل، وشمل النظام وانتظم الشمل، وصان العلماء بالبذل، وأعان بأفضاله أعيان أهل الفضل، وفاز بالحمد وحاز الثناء، وأجاز الشعراء، وأكرم الكرماء، وروّج الرجاء، وأولى النعماء، ونعّم الأولياء**" [3]

كما وصف العماد جانباً من عدل بطله صلاح الدين الأيوبي، وذلك حينما صوّره وقد جلس في دار العدل، وحكم بين الناس بنفسه، واستمع إلى مظالمهم ، ومنح الحقوق لأصحابها و في ذلك يقول واصفا مجلس صلاح الدين: "**وابتدأ بالجلوس في دار العدل وبحضرة القضاء والعلماء من أهل الفضل، واسترفع قصص المتظلمين...، وحقّق الحقوق، ورتق الفتوق، وأقام للشرع السوق، وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق، وحلّ بإنصافه كل مشكلة، وطب بإسعافه كل معضلة**" [4]

و يشير الأصفهاني إلى زهد صلاح الدين وعدم التفاته إلى الغنائم عند انتصاره على أعدائه، ومن ذلك قوله: " **وترك السلطان الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت بأموال عظيمة ، فما أعارها نظرة، ولا تردد أمره فيها** "[5] و قد صور العماد بطله ذا نزعة إنسانية تميل إلى الوفاء والتسامح، ومن هذه المواقف ما فعله صلاح الدين الدين الأيوبي مع صاحبة الكرك، حينما جاءت إليه تطلب فك أسر ولدها، ومعها زوجة ابنها، فما كان من السلطان إلّا أن استقبلهنّ وو أكرم وفادتهنّ، وفي ذلك يقول العماد: "**فأكرم السلطان وفادتهنّ و وفر إفادتهنّ، و قرّب إرادتهنّ، و قرر زيادتهنّ، ووهب لهنّ ولأتباعهنَّ وأشياعهنَّ ما كان يلزمهنَّ ويلزمهم من مال القطيعة، ووصلهنَّ بصلاته الرفيعة، وخصَّهنَّ بما لاق بكرمه من حسن الصنيعة، ووثَّقهنَّ بنُجح الذريعة**" [6]
[6]

و على العموم فقد لامس العماد أغلب الصفات التي يتحلى بها البطل المسلم من عدل و كرم وشجاعة وحكمة وصراحة بعيدة عن المكر والدهاء، وتقوى الله وطاعته، وزهده في الحياة الدنيا، وسهره على رعيته وقضاء مصالحهم، وحلمه، حتى فاق ملوك زمانه.

---

[1] بهاء الدين بن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994،ص 135
[2] الأصفهاني، البرق الشامي، تح: مصطفى الحياري ، ج3، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ط1987،1 ،ص 36
[3] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 215
[4] المرجع نفسه ، ص 214
[5] المرجع نفسه ، ص 449
[6] المرجع نفسه، ص 135

و من الطبيعي أن يقف الأديب حزيناً باكياً، عندما يهوي هذا النجم الذي كان يلمع أمام المسلمين و يضيء قلوبهم و يخلق في نفوسهم الأمل، و قد ووصف موت البطل صلاح الدين في سنة 589 ه بقوله: **" وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، في سحرة يوم الأربعاء، ونابت الظلماء عن الضياء، ودخل قمره ليلة السابع والعشرين في السِّرار، ودجت مطالع الأنوار "** [1]

4- الدراسة الفنية:

4-1- **اللغة و الأسلوب**: تنوعت الأساليب والقوالب اللغوية عند كتّاب القرن السادس الهجري، تبعاً لثقافتهم وقدراتهم، والموضوعات التي عالجوها في نثرهم، وقد أثرت روح العصر فيهم، حتى كادت لغة النثر أن تصبح مثل لغة الشعر[2]، وهو ما انعكس بشكل جلي على نثر العماد الأصفهاني.

ولأن اللغة هي وسيلة التعبير عن المعنى، فقد اتّبع العماد طرائق عدة للتعبير عن أفكاره، سواء أكان ذلك من أجل الاستثارة العاطفية وشحذ الهمم والنفوس، أم في إبرازه للمخاطر التي تتهدد الإنسان المسلم، فعندما يصف العماد الحرب، نجده يختار ما يناسبها من الألفاظ، التي تعبر عن واقع الحال، وشدة الصراع بين الطرفين المتحاربين، ويميل العماد إلى استخدام ألفاظ تحمل في دلالاتها الإثارة والتهويل، خاصة في وصفه للمعارك، فينقل القارئ بأسلوب جميل إلى أجواء المعركة، فتكاد تسمع صليل السيوف، وصيحات الجنود، وصهيل الخيول، وأصوات الضرب والطعن، ومن ذلك قوله: **" فضُرب الكوس وسمتْ النُّفوس، وأنارت في ظلام القتام من الترك والترائك الأقمار والشموس، واشتعلت من شيب البيارق في شعاع تلك البوارق الرؤوس "**[3] . ويتضح من هذا القول ، أن أسلوب العماد يتسم بالقوة والجزالة في اختياره لألفاظه ومعانيه، ذلك أن الحرب تحتاج إلى هذا النوع من الألفاظ والمعاني.

و قد اندفع العماد الأصفهاني طلباً للسجع إلى استخدام ألفاظ فيها نوع من الغرابة كاستخدامه لكلمة الدردبيس بمعنى الداهية، يقول العماد في وصف الصليبيين وما حلَّ بهم في مدينة صور:**" ونزلت النوازل المركّسة من نزوله ونزاله بالمركيس، فوقع في الدردبيس، والعذاب البئيس، فكأنما نُفخ في صور صور، فحُشر أهل جهنم وملأوا السور"**[4]

وقد تميز أسلوب العماد في نثره **بالإطناب**، ذلك أن ما يتعلق بالحرب يحتاج إلى تفصيل واستقصاء، فكان العماد يبسط الحديث في تصويره للمعارك، ويشيد بالأبطال ويفصل في هزيمة الأعداء، ذلك أن اتساع مجال الكلام في ذكر الواقعة ووصفها كان أحسن وأدل على البلاغة، وأدعى لسرور المكتوب إليه.[5]

ومن المظاهر الأسلوبية عند العماد **التكرار**، وخاصة حينما يتعلق الأمر بالدعاء للمرسل إليه، فنجده يطيل في الدعاء ويكرر عباراته كما في الكتاب الذي بعث به إلى أخ السلطان صلاح الدين في اليمن .[6]

وقد استخدم العماد أسلوب **السخرية والاستهزاء**، فنجده يصور العدو الصليبي بالقردة، إمعاناً في تحقيرهم والسخرية منهم، يقول في وصفهم: **" ودام القتال أياماً، يتضاعف اصطلاء واصطلاماً، ويتظاهر اضطراباً واضطراماً، وبنات الحنايا هائجة، وأمات المنايا ناتجة، ورُجمت بشهب النفّاطات شياطين الدَّاوية المردة، وتعادت الأسود العادية على أولئك القردة"**[7]

---

[1] أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية ،تح: إبراهيم الزيبق، ج4، مؤسسة الرسالة ، بيروت،ط1 ، 1997،ص367

[2] عبد الجليل حسن عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، دار البشير، عمان، ط1، 1989، ص346

[3] عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 100،99.

[4] المرجع نفسه، ص154

[5] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، تح: أحمد الحوفي و بدوي طبانة، ج2 ،دار نهضة مصر، 1959، ص 355

[6] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 190

[7] المرجع نفسه، ص105

وينوع العماد في توظيف الأساليب بين الأسلوب الخبري و الأسلوب الإنشائي بصيغه المختلفة من أمر و استفهام و تعجب، كما نجده يلجأ إلى أسلوب **الحوار** و خاصة فيما تعلق بذكر يوميات الحروب و مجريات المعارك.

2-4- الصنعة اللفظية و البديع:

احتلَّ العماد مكانة مرموقة في مدرسة الصناعة اللفظية التي كانت سائدة آنذاك وعلى رأسها القاضي الفاضل، واعتبر العماد نفسه تلميذاً لشيخ هذه الصناعة، ومتأثراً به كما يبدو من قوله:" **فأنا متمثّلٌ لأمره المطاع، ملتزم له قانون الأتباع**" [1]

وقد دفعه تتبع المحسنات البديعية واصطيادها إلى درجة الإسفاف والخروج عن موضوع الحديث أحياناً[2]، ولعله لا يُلام في ذلك، فهي صنعة تغلغلت في الأدب، وتحتاج من الأديب إلى إظهار الموهبة والبراعة في مقدرته على استخدامها وتوظيفها، فكان من العماد أن قبل التحدي، وأطلق فرسه في هذا الميدان.

ويشيع في نثر العماد استخدامه لهذه المحسنات، حتى أن كتابه الفتح القسي، قد التزم فيه البديع والصنعة، من بدايته إلى نهايته، وحوى بين دفتيه ضروباً عدة من ألوان الزخرف الفني.

وأول هذه الألوان هو **السجع**، وهو مظهر رئيس في نثر العماد، فقد استغل الألفاظ الموسيقية، وجعل نثره يسير في إيقاع موسيقي، من خلال السجعات المتتابعة التي يبثها في نثره و من ذلك وصفه استماتة الصليبيين ودفاعهم عن المدينة المقدسة بلغة مسجوعة ظاهرة التكلف، يقول:" **وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل، من سائف ونابل، وبطل للباطل، وعاسٍ عاسل بالعاسل، قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون، ويعاجزون ويناجزون، ويرمون ويدمون، ويُحمون ويَحمون، ويحتدّون ويحتدمون، ويضطربون ويضطرمون، ويذودون ويذبون...**"[3]

ونتيجة لرغبة العماد في إدخال الإيقاع الموسيقي على بنائه الفني، فقد أكثر من استخدامه **للجناس**، مستغلاً تماثل الألفاظ وتقاربها، حتى بدا أنه مفتون بالجناس، يورده بكثرة ،فلا تكاد تفتح صفحة من كتابه" الفتح القسي"، إلّا وتقع عيناك على ضروب الجناس، المنثورة هنا وهناك، ومن ذلك وصفه لاستماتة المسلمين ودفاعهم عن مدينة عكا، **يقول ":وما زالوا يَقتلون ويُقتلون،...ويشعبون ويصدعون، ويكيلون بصاع المصاع، ويجيبون للعمر الراحل داعي الوداع، ويتناجون بألسنة المناصل، ويتقابلون بوجوه الصواقل، ويتشاكون بكلام الكِلام، ويتلاقون بسلام السّلام، ويتساقون بصحاف الصفاح، ويتماشون بمراح الرماح، ويستحلون ضرب الضراب، ويستجلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب، إلى أن انتقل القتال من السور إلى الدور، ومن الستائر إلى الستور، ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح ...**" [4]

وطلباً للتوضيح والاستقصاء وتأكيد المعنى المراد، فقد اتكأ العماد في نثره على **الطباق والمقابلة**، فكان يسعى إلى نقل صورة واضحة لمجريات الحرب الدائرة آنذاك، ولعل طبيعة الحروب تقتضي هذا اللون من ألوان البديع، فهو يظهر بجلاء مدى تغير الأحوال واختلافها، قبل وبعد المعارك والفتوحات، ومن ذلك قوله

---

[1] العماد الأصفهاني، خريدة القصر و جريدة العصر ، قسم شعراء مصر، تح: أحمد أمين و شوقي ضيف و إحسان عباس، مج1، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1951، ص36

[2] محمد زغول سلام، تاريخ النقد العربي، دار المعارف، مصر،1964، ص77

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص124

[4] المرجع نفسه ، ص518

في وصف السبايا الصليبيات بعد فتح بيت المقدس:" **فكم محجوبة هتكت، ومالكة مُلكت، وعزباء نكحت، وعزيزة منحت، وبخيلة تسمحت، وحيية توقحت، ومجدة مزحت، ومصونة ابتذلت، وفارغة شغلت.."**[1]

ومن ظواهر الصنعة الأخرى التي امتاز بها نثر العماد ظاهرة **الترصيع**، وتشيع كثيراً لدى العماد، ومن ذلك قوله في وصف المنجنيق: " **وتصدم وتهدم، وتصرع وتصدع، وتنهز بدلائها، وتجهز ببلائها، وتحلّ تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها، وتفلّ شمل المباني بتفريقها وتبديدها، وتقوّض القواعد بضربها من أساسها، وتنقض المعاقد بجذبها في أمراسها، وتشفه الموارد بشربها من كأسها**" [2]

وهنالك صور أخرى للمحسنات البديعية، أتى بها العماد لتلوين أسلوبه وتوضيح معانيه، ومنها **التورية**، فكان يستعمل بعض الألفاظ للدلالة على مسميات أخرى، فالمسلمون أهل التوحيد وأهل الجمعة، والنصارى أهل التثليث وأهل الأحد، ومن ذلك قوله: "**وبروز التوحيد إلى التثليث، وانتهاض الطيّب لإدحاض الخبيث**" [3]

ويبدو أن ما حققه العماد في مجال الصنعة الفنية هو خير شاهد على ذلك العصر، الذي اتصف برواج الزخرف الفني في الكتابة، حتى وصلت إلى حد التكلف، في بعض الأحيان.

3-4- <u>التناص:</u>

التأثر بالنصوص الأخرى هي ظاهرة قديمة في الأدب العربي، و دخلت في مسميات عدة كالاقتباس أو التضمين ، وقد ظهر التأثر بالموروث الديني والأدبي والتاريخي جلياً في أدب تلك الفترة، ولاسيما عند العماد الأصفهاني.

ويمثل القرآن الكريم المثل الأعلى للبلاغة والبيان، ولذا فقد أكثر الكتّاب ومنهم العماد من التأثر به، وبثه في ثنايا كتاباتهم ورسائلهم، فهو حجة لا تُدحض، وحقيقة لا تُرفض، ولذلك فقد أكثر العماد من تأثره بالقرآن الكريم، وورد بكثرة في تضاعيف نثره الفني ورسائله، وجمع العماد بين الاقتباس المباشر للآيات الكريمة تارة، وتوظيفها في نثره تارة أخرى.

ففي ذكره ليوم فتح القدس يصف عظمة هذه المناسبة و عجز البليغ عن وصفها ، ويستشهد بقوله تعالى:(**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)**[4]، وهو ما يدل على عظمة الفتح ومدى فرح المسلمين به.

وفي حديثه عن الجيش المسلم، يصفه العماد بالكثرة والبركة، يقول: " **وكان يوم عرضه مذكراً بيوم العرض، وما شاهده إلّا من تلا(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ)** [5] " [6] ، وهو هنا يوظف جزءاً من الآية الكريمة في النص، يتوافق مع ضخامة الجيش المسلم المتوجه إلى طبرية.

ولم يكتف العماد بالاقتباس من آيات القرآن الكريم، وراح ينهل من مصادر أخرى كالحديث النبوي الشريف، ومن ذلك وصفه للمسلمين في المسجد الأقصى بعد تحريره، وفي ذلك يقول واصفاً العابدين والمصلين ": **فهناك كل ولي يعبد ربه ويأمل بره، وكل أشعث أغبر لا يُوبه له لو أقسم على الله لأبرَّه، وهناك كلّ من يحيي الليل ويقومه، ويسمو بالحق ويسومه**"[7]

---

[1] المرجع نفسه ، ص 135،136
[2] المرجع نفسه ، ص126
[3] المرجع نفسه، ص 64
[4] سورة الكهف، الآية 109.
[5] سورة الفتح، الآية 4
[6] العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 64
[7] المرجع نفسه، ص 143

وهو ينظر إلى الحديث الشريف: **"ربَّ أشعث أغبر لا يُؤبه له، لو أقسم على الله لأبره"**[1]، في تصويره لحال المسلمين العابدين في المسجد الأقصى بعد تحريره.

وكان الشعر العربي يشكل رافداً مهماً في ثقافة العماد، لذا فقد تأثر بأشعار سابقيه التي أمدته بالألفاظ والمعاني، ناهيك عن توظيف بعض منها في نثره، بما يخدم غرضه، ومن ذلك وصفه لفرسان المسلمين ومدى استعدادهم الدائم للقتال، فضمّن ذلك شطراً من بيت للمتنبي يتوافق مع حال المسلمين، وفي ذلك يقول: **" وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوماً، وما طعمنا في هذه الليالي نوماً، ولا سمنا لطارق طيف غمضاً، ولا شمنا إلّا لبارق سيف ومضاً، ولكم قذفتنا المنايا وقد دخلنا لهواتها، وكأن أبا الطيب عنانا بقوله: " وكأنَّما خُلقوا على صَهواتِها"** [2]"[3] ، وهو توظيف موفق للتعبير عن حالهم، وطول محاربتهم للأعداء.

وفي تصويره لفتح بيت المقدس، يصور هذا الفتح الجليل، وقد عجز أن يحيط به وصف من شعر أو نثر، يقول: **" وأعان الله بإنزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح، وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً "** [4]

ولعله في هذا ينظر إلى قول أبي تمام: فتحُ الفتوحِ تَعالى أنْ يُحيطَ بهِ

نظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ من الخطب[5]

ويضمّن العماد نثره بعضاً من الأمثال، يخدم بها موضوعه الذي يتحدث عنه، ومن ذلك قوله في وصف حملة المسلمين على أعدائهم وقد أنزلت بهم الهزيمة، يقول: **" فرمينا أهل التثليث فيها بثالثة الأثافي، وأوطأناهم بشفاه الشِّفار على حدود الأشافي"** [6] وهو ينظر إلى المثل العربي القائل: "رماه الله بثالثة الأثافي" [7]

ويبدو أن العماد الأصفهاني كان يميل في نثره إلى التأثر بالموروث الديني والأدبي، بما يخدم غرضه الذي يريد، وساعده في ذلك ثقافته وسعة إطلاعه، مع الإشارة إلى أن موضوع الحرب يحتاج إلى مثل ذلك الاقتباس والتضمين، خاصة إذا ما عرفنا أن الصراع بين المسلمين والصليبين هو صراع ديني في جوهره.

4-4- الصورة الأدبية:

يلجأ الأدباء للخيال لتكوين صورهم الفنية، والتي تعطي تصوراً أشمل للفكرة المراد التعبير عنها، فالخيال هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم، وهم لا يؤلفونها من الهواء، إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها، تختزنها عقولهم، وتظل كامنة في مخيلتهم، حتى يحين الوقت، فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها[8]، وبالتالي فإن الصورة تطلق العنان للخيال كي يحول الجمادات إلى محسوسات تنبض بالحياة.

والصورة الفنية هي الوسيلة المعينة للأديب للتعبير عن تجربته، وحتى يتحقق ذلك، فإنها تتطلب تآلف الصور الجزئية في العمل الأدبي، لتكوّن الصورة الكلية التي هي التجربة، وتنقلها لنا نقلاً فنياً واقعياً صادقاً [9]، لذا فقد فقد اهتم العماد في نثره بالصورة الفنية، والتي كانت سمة عامة من سمات العصر الأيوبي.

وقد برزت الصورة في نثر العماد بوضوح، فكان يلجأ إلى التصوير القائم على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، ويركب منها صوراً كلية متناسقة، يتخذ منها وسيلة للتعبير عمّا يعتمل في نفسه من مشاعر، ويوصلها إلى المتلقي توصيلاً موحياً معبراً.

---

[1] البخاري، باب و الجروح قصاص، حديث رقم 4611

[2] ورد بيت المتنبي في الديوان: فكأنما نتجت قياما تحتهم و كأنما وُلدوا من صهواتها

المتنبي، الديوان، تح: عبد المجيد دياب ، دار المعارف القاهرة، 230/1

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 323،322.

[4] أبو شامة ، الروضتين، ج3 ،ص347

[5] أبو تمام ، الديوان ،شرح الخطيب التبريزي، تح: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر 45/1

[6] العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 100

[7] يضرب لمن رمي بداهية عظيمة ، الميداني، مجمع الأمثال،1تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة ، بيروت/287. بيروت/287.

[8] شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط 2،ص167

[9] محمد عبد المنعم خفاجي، النقد العربي الحديث و مذاهبه ، مطبعة الفجالة، القاهرة، 1971م، ص44

وبالنسبة لمصادر الصورة عند العماد الأصفهاني، فقد تنوعت بتنوع موضوعاته الخاصة بالحرب، فكان يستمد بعض صوره من واقعه الحربي ومشاهد الحروب التي شهدها، وكان يستمد بعضها الآخر من موروثه الديني أو الأدبي، وبعضها الآخر من الطبيعة بعناصرها المختلفة، أو من مخزون ثقافته وإلمامه بأدوات الكتابة في عصره.

ويشكل القرآن الكريم مصدراً مهماً عند العماد، استلهم منه كثيراً من صوره، ومن هذه الصور المقتبسة من القرآن الكريم، صورة الأسرى وقد شبههم بالسكارى نتيجة انهزامهم وانكسارهم[1]، وصورة النجوم وهي ترجم الشياطين تتشابه مع سيوف المسلمين التي تنقض على رقاب شياطين الكفر .[2]

ومن الصور التي استمدها العماد من الطبيعة صورة الأسلحة وتأثيرها على العدو، فقد اختار لها أوصافاً منتزعة من الطبيعة، من خلال التشخيص والتجسيم، يقول ":**وتيقظت الأقدار للإقدار على إيقاظ عيون البيض لإجراء دم الشرك المطلول، وتنزل البركات في انتجاع المراق من نجيع المارقين لإنزال نص النصر على النصل المسلول، وقد آن أن ترعى الحشاشات منهم على رعي الحشيش، ويطير إلى أوكار المقل طير السهم المريش، وترتع ثعالب العوامل في عشب الكُلى، ... وترن رقاق المرهفات في الرقاب رنين الخطب على الأعواد، وتذوب قلوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الثلوج على رؤوس الأطواد، وتحمل أشجار القنا بثمر الهام...، ويقطف ورد الموت الأحمر من ورق الحديد الأخضر...**" [3]

ومن المصادر الأخرى التي ترفد الصورة عند العماد، ثقافة الكاتب وأدواته، ومن ذلك تصوير العماد لرؤوس الأعداء بالثمار التي قد حان وقت حصادها، يقول ":ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين، وهذا أوان حصادها وقطافها[4]، وهو ينظر إلى قول الحجاج في خطبته المشهورة ":إني أرى رؤوساً قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها"، وهو قول مشهور.

ويبدو أن العماد قد أظهر مقدرة فنية عالية في نقله لمجريات الصراع في عصره، ليس كشاهد عيان فقط، بل كمصور بارع اعتمد على نقل الصور الجزئية والكلية، واستمد من خياله الخصب بتشبيهاته و كناياته واستعاراته و مجازاته، أجمل الصور وأبدعها، مطعِّماً إيّاها بعناصر الصورة من لون وحركة وصور حسيّة، إضافة إلى اعتماده التشخيص والتجسيم في نقل التفاصيل والحيثيات، تعداها أحياناً إلى الابتداع والتجديد في صورته الفنية.

خاتمة:

في الختام، يمكن القول إنّ صورة القدس في أدب السير، وخاصةً في كتاب "**الفتح القسي في الفتح القدسي**" لعماد الدين الأصفهاني، تمثّل تجسيداً للروحانية والتاريخ والهوية الإسلامية، فمن خلال تحليل هذا الكتاب ندرك أن القدس لم تكن مجرد مكان جغرافي بل كانت رمزاً للتضحية والإيمان، ومركزاً للروحانية والدينية.

و تبرز هذه الدراسة أهمية القدس كمدينة مقدسة في قلوب المسلمين وكيف أنّها تعبر عن تاريخهم وثقافتهم وهويتهم، كما تسلّط الضوء على كيفية تصوير القدس في أدب السير بأسلوب يجمع بين الوصف الجمالي لمعالمها وبين التأمّل في الأحداث التاريخية التي شهدتها.

كما يعكس هذا الكتاب خصائص أسلوب عصر الأديب الذي طغت عليه الصنعة اللفظية، حيث غلبت على الكتاب المحسنات البديعية المختلفة و خاصة الجناس و السجع ، فقد جعله الأصفهاني سجعا من أوله إلى آخره.

---

[1] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 449

[2] المرجع نفسه، ص148

[3] الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 283

[4] المرجع نفسه، ص148

و من خلال دراسة كتاب **" الفتح القسي "** ، ندرك أن الفتح الإسلامي للقدس لم يكن مجرد فتح عسكري، بل كانت تجربة روحانية تعبر عن إرادة المسلمين في استعادة هذه المدينة المقدسة، رسم من خلالها الكاتب صورة البطل لفاتحها صلاح الدين الأيوبي.

و أخيرا فإن مداخلتنا حول صورة القدس في أدب السير، مع التركيز على كتاب **" الفتح القسي في الفتح القدسي"** كنموذج تعكس أهمية هذه المدينة الرمزية وتأثيرها العميق في الوعي الإسلامي وفي تاريخ الأمة الإسلامية، فقد بدت رمزية المكان في طابع القدسية و الروحانية الذي تتميز به هذه المدينة، كما بدت رمزية الزمان في تزامن هذا الفتح مع أعظم الليالي و هي ليلة الإسراء.

قائمة المصادر و المراجع

1- القرآن الكريم
2- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، تح: أحمد الحوفي و بدوي طبانة ، ج2 ، دار نهضة مصر، 1959.
3- ابن منظور، لسان العرب، مج4، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، 2003.
4- ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج2، دار الكتب و الوثائق القومية ، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957.
5- أبو تمام ، الديوان ،شرح الخطيب التبريزي، تح: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر 45/1.
6- أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية ،تح: إبراهيم الزيبق، ج4، مؤسسة الرسالة ، بيروت،ط1 1997.
7- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة،تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، مج 3، 1979.
8- أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب ، القاهرة، مصر، ط1، 1973.
9- البخاري، باب و الجروح قصاص، حديث رقم 4611.
10- الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون،ج3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1969،3.
11- الجوهري، الصحاح تاج اللغة و صحاح العربية،تح: أحمد عبد الغفور عطار،دار العلم للملايين، بيروت، مج2، ط1987،4.
12- الفتح بن علي البنداري، سنا البرق الشامي، اختصار من كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني، تح: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي ، القاهرة، مصر.
13- الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ،تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي،مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان،ط2005،8
14- المتنبي، الديوان، تح: عبد المجيد دياب ، دار المعارف القاهرة، 230/1.
15- الميداني، مجمع الأمثال،1تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة ، بيروت/287.
16- الولي محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان،ط1، 1990.
17- بهاء الدين بن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994.
18- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج 7 ، دار العلم للملايين، ط15، 2002.

19- ريموناجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، نقله إلى العربية و علق عليه الدكتور حسين محمد عطية ، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط1، 1989.
20- زكريا محمد، أصل التسمية لكنيسة القيامة، حوليات القدس، العدد 13،2012.
21- شفيق جحا، منير البعلبكي ،بهيج عثمان، المصور في التاريخ، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
22- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء ،ج 21مؤسسة الرسالة، 1996.
23- عبد الجليل حسن عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، دار البشير، عمان، ط1، 1989.
24- عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، تاريخ ابن خلدون ،ج 5، دار الفكر، بيروت.
25- عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، قرأه و علّق عليه محمود شاكر، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، دط، دت.
26- عبد الملك مرتاض ، قضايا الشعر، دار القدس العربي للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1،2009.
27- عماد الدين الأصفهاني، البرق الشامي، تح: مصطفى الحياري ، ج3، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ط1،1987.
28- عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تح: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة، 1965.
29- عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة القصر ، قسم شعراء مصر، تح: أحمد أمين و شوقي ضيف و إحسان عباس، مج1، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1951.
30- غادة الإمام ، الصورة الشعرية عند جاستون باشلار ، التنوير للطباعة، بيروت، لبنان،ط1،2010.
31- غورغي غاتشيف ، الوعي و الفنّ، تر: نوفلنيوف، عالم المعرفة، الكويت، دط، 1990م.
32- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1982.
33- مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس،تح: جماعة من المختصين ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب بدولة الكويت، ج12، 2001
34- محمد بن إبراهيم الأنصاري الخزرجي، تاريخ دولة الأكراد و الأتراك، آزاد للنشر، إسطنبول، 2015
35- محمد بوعزة، تحليل النص السردي (تقنيات و مفاهيم)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان،ط1 ، 2010.
36- محمد زغول سلام، تاريخ النقد العربي، دار المعارف، مصر،1964.
37- محمد عبد الغني حسن، التراجم و السير، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 3، 1980.
38- محمد عبد المنعم خفاجي، النقد العربي الحديث و مذاهبه ، مطبعة الفجالة ، القاهرة، 1971م.
39- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار النهضة للطباعة، القاهرة، مصر، دط، 1984.